دور الخطاب الديني للمساجد في التقليل من ظاهرة العنف الأسري

إعداد

د/ فتيحة طويل

أستاذ محاضرصنف "أ" قسم العلوم الاجتماعية – جامعة محمد خيضر

تم استلام البحث في ٢٠١٨/٤/١٤ تم الموافقة على النشر في ٢٠١٨/٦/١٨

الملخص:

تسعى هذه الدراسة لتسليط الضوء على دور الخطاب الديني للمساجد، كأحد أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية، التي يتم من خلالها تشكيل السلوك وتعديل وظائفه، لتكامل أجزاء النسق ألقيمي والأخلاقي في العلاقات الاجتماعية، وإحدى الاستراتجيات الاجتماعية لمواجهة العنف الأسري على اختلاف صوره المتعددة، من ضرب وتعذيب وحرق وقتل وشتم وارتكاب الفواحش بين ذوي القربى... وغيرها من أشكال العنف الأسري التي تحدث تناقضات صارخة في العلاقات الاجتماعية، وتضرب البناء الاجتماعي في العمق.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الديني-الخطاب- العنف - العنف الأسري

تمهيد:

لقد باتت الأسرة الجزائرية تعيش الآن في عالم متغير سريع الإيقاع، وفي زمن الانفتاح الاستهلاكي لا الإنتاجي، سادت مشاعر المادية والأنانية وحب الذات وعدم التواصل والتراحم بين الأسرة، مع ظهور كافة الاعتداءات من ضرب وتعذيب وحرق وشتم وارتكاب الفواحش بين ذوي القربى، وإجبار بعضهم البعض على التسول والسرقة وممارسة الرذيلة، مع انتشار مسلسل التخطيط لتدمير حياة العجزة وكبار السن، والتفريق في المعاملة بين الإناث والذكور في جميع احتياجاتهم... وغيرها من مظاهر العنف الأسري، التي تحدث تناقضات صارخة في العلاقات الاجتماعية الأسرية، وتضرب البناء الاجتماعي في العمق.

الأمر الذي يستدعي البحث عن حلول قابلة للتطبيق على هذه الظاهرة، من خلال دراسة دور الخطاب الديني للمساجد كأحد مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وإحدى القوى الثقافية والاجتماعية التي يتم من خلالها تشكيل السلوك وتعديل وظائفه، لتكامل أجزاء النسق القيمي والأخلاقي في العلاقات الأسرية، بمختلف الاستراتيجيات والمعارف.. التي تقلل من ظاهرة العنف الأسري.

فهل تمكن الخطاب الديني من التقليل من ظاهرة العنف الأسري أم زاد من انتشارها؟.

أولا: العنف الأسري:

لقد شغل موضوع العنف الأسري اهتمام الباحثين والمتخصصين في العلوم الإنسانية المختلفة، كون الأسرة هي ركيزة المجتمع وأهم بنية فيه، ولأن العنف داخلها يعتبر كمحتوى خطير ينشأ في جميع الحالات نتيجة إنكار للغيرية وعلاقة النفوذ والتأثير والاستيلاء على الآخر.

فهو ذلك العنف الممارس على الأفراد في إطار العائلة أو الأسرة ومن أوجه ذلك: العنف الممارس من طرف الآباء على الأبناء أو عكسه، والعنف الممارس من طرف الأزواج على الزوجات وعكسه، فهو بذلك قد يدل على أي عنف يمكن أن يوجد داخل الأسرة، ويشير بوجه عام لسوء معاملة شخص لشخص آخر تربطه به علاقة وثيقة مثل العلاقة بين الزوجين، بين الآباء والأبناء وبين الإخوة **(دشاش نادية، ١٥٧).**

كما يعرف بأنه سلوك عدائي يؤدي إلى إيذاء فرد لفرد آخر داخل الأسرة، وقد يكون هذا تعبير بالكلام الجارح و التهديد، وقد يكون فعليا كالضرب والاغتصاب و الحرق والقتل، وقد يجمع بين الاثنين، بين الإيذاء الجسدي والنفسي الناتج عن إصابة أو معاناة، تم استرجاعه من:

.www.annabaa.org/nbamews/70/113.htm

ومنهم من يؤكد على أنه نمط من أنماط السلوك العدواني، والذي يظهر منه القوي في الأسرة سلطته و قوته على فرد أو مجموعة من أفراد الأسرة، لتسخيره في تحقيق أهدافه و أغراضه الخاصة ، مستخدما بذلك كل وسائل العنف سواء كان جسديا أو لفظيا أو معنويا، تم استرجاعه من:

..www.saaid.mzt/book/9/2799.doc

وفئة ثالثة تركز على العنف الأسري بممارسة القوى البدنية لإنزال الأذى، كما أنه الفعل و المعاملة التي تحدث ضررا جسميا أو التدخل في الحرية الشخصية لواحد من أفراد الأسرة **(محمود سعيد الخولي، ٢٠٠٦، ٤٧).**

وقد يكون هذا السلوك أو الاعتداء بقصد أو غير قصد، لأجل أسباب أو لغير وجودها، كالغضب والفشل والإحباط أو التأديب أو لدفاع عن الذات أو القهر والإجبار علي تلبية رغبات معينة، أو الإجبار على المنع من القيام بمهام، مما ينتج عنه ضرر بدني أو نفسي أو لكليهما معا، وغيرها من الأسباب التي تتعدد وتتنوع و تنقسم إلى :

- أسباب ذاتية تنتج من ذات الإنسان، التي تكونت في نفسه نتيجة ظروف قاسية من قبل الإهمال أو سوء المعاملة، والعنف الذي تعرض له الإنسان منذ طفولته، ومع تراكمها تولد له عقد نفسية، يتم تفريغها باللجوء إلى العنف داخل الأسرة، إلى جانب أسباب وراثية قد ينتقل العنف منها عبر الأجيال المتتابعة وتتزايد من جيل لآخر.

- أسباب اقتصادية كتدني المستوى الاقتصادي للأسرة، والأحداث الضاغطة كالفقر والبطالة... التي ينتج عنها سوء المعاملة إزاء أفراد الأسرة، لعدم تمكن رب الأسرة من تلبية حاجات الأسرة الأساسية، الأمر الذي ينعكس على سلوكه النفسي والاجتماعي.

- إلى جانب الأسباب الاجتماعية التي تتمثل في العادات والتقاليد التي اعتادها مجتمع ما، والتي تتطلب من الرجل أن يسيطر على أفراد الأسرة بالقوة والعنف، تم استرجاعه من:

www.saaid.mzt/book/9/2799.doc. إلى جانب سوء معاملة الآباء لتربية أبنائهم وتفريغ ضغوطهم الخارجية على أفراد أسرهم، وخضوع أحد الزوجين للنقد المستمر الجارح للطرف الآخر، وتدخل أحد الأقارب في مشاكل الأزواج، ومع تفشي الأمية وتدني مستوى التعليم وضعف الوعي الديني والثقافي وتعاطي المخدرات والخمور، **(محمود سعيد الخولي، ٢٠٠٦، ٩٣)**، و غيرها من مظاهر العنف الأسري، التي نعيشها ونسمع عنها يوميا، وتتعدد وتتنوع على أثرها الأسباب والدواعي، في صور ومظاهر مختلفة أهمها:

- عدم تحمل الزوج المسؤولية اتجاه زوجته وإهماله لها عند مرضها أو سلبها ممتلكاتها، بحجة الإنفاق عليها أو تطليقها والاستغناء عنها، في صورة الأب الذي يجبر أولاده على العمل بالسرقة أو الترويج للمخدرات، أو يتعدى جنسيا على بنات زوجته، الأم المتسولة التي تضرب الأولاد وتجبرهم على التواجد بجوارها على الرصيف، وفي عز البرد وسقوط المطر... هؤلاء هم أطفال شوارع اليوم ومجرمي الغد.
- استخدام كافة أنواع التعذيب للأبناء من قبل الآباء والأمهات، بالشتم والطرد والحبس والضرب والكي بالنار والكهرباء، ومختلف أشكال العقاب التي تقلل معها مشاعر الصدق والرحمة و المحبة ... لأنهم لم يتعلموا طيلة حياتهم أي دروس في التربية الأسرية وأبعادها، ولم يمارسوها في أسرهم، وطبيعي أن ينتقل العنف الذي عاشوه لأبنائهم الذين سينقلونه للأجيال المستقبلية.
- و مع سوء المعاملة وسوء التربية في الصغر والتدليل وتلبية رغبات وهوى الأبناء، وقصور التوعية الدينية بالتراحم والتواصل للأجيال المتعاقبة، وصعوبة الحياة المتغيرة والطمع والأنانية، الأمر الذي يجعل الأبناء يطردون آباءهم ويرمونهم في دار العجزة، بعدما ضاق بهم المكان مع أزواجهم وأولادهم.
- الابن والأخ المنحرف البطال، الذي يأخذ المصروف بالقوة والابتزاز والتهديد والسرقة والقتل أحيانا.

- الانحلال الأخلاقي لبعض الأمهات خصوصا عند سفر الآباء أو نتيجة لضعف الأب وعدم سيطرته وانسياقه وخضوعه للزوجة، ومحاولة هذه الأم دفع بناتها للسير في طريقها.
- إعطاء الحرية في بعض الأسر، بدون رقيب لمشاهد الأفلام والأغاني المثيرة للغرائز الجنسية، لدى الأطفال والشباب من الجنسين، للإعلاء قيم الإباحية عن قيم العفة والطهارة، وما يتركه من جرائم زنا المحارم ومختلف أشكال العنف، وبعد هذا يحاول هؤلاء الآباء فرض السيطرة والرقابة فجأة ؟! عند ارتكاب الأبناء مشاكل تعرضهم للمساءلة القانونية.
- توفر الثروة في يد الأبناء والقدرة على ممارسة مختلف المظاهر الحياتية الأخرى، مما يسهل وقوع الأبناء ضحايا للفراغ الاجتماعي والعاطفي واللامبالاة، لعدم وجود مشاعر التواصل والتراحم والإحساس بالكيان لغياب الآباء.
- التفرقة في المعاملة بين الذكور والإناث في جميع احتياجاتهم، والسماح للذكر ما لا يسمح للأنثى، وإعطائه مكانة عالية لأنه ذكر. مما يولد مشاعر البغض والكراهية والحقد بين الإخوة ذكورا وإناثا، في مراحل حياتهم المختلفة، وقد يسلبها حقها في الميراث لأنها امرأة، كما هو الحال عندنا في كثير من المجتمعات.
- إلى جانب العنف ضد النساء، فحسب ما ورد في تقرير البرنامج الإنساني للأمم المتحدة الصادر سنة ٢٠٠٨ ، أن وزارة الأسرة وقضايا المرأة بالجزائر بينت في دراسة قامت بها أن ما يقارب ٥٤% من النساء تعرضن للعنف اللفظي، و٢٢% للعنف المعنوي و٦% للعنف الجسدي، وفي دراسة أخرى لسنة ٢٠٠٦ بأن امرأة واحدة من بين ١٠ نساء جزائريات تتعرض للعنف الجسدي، يمارس غالبا من طرف أفراد الأسرة وخاصة الزوج، و١٦% من النساء المطلقات والأرامل يتعرضن إلى الإهانة في أسرهن، وأن ٢٨٣ امرأة كانت ضحية اعتداء جنسي ارتكب من قبل ٣٥٥ رجلا سنة ٢٠٠٠ ، تم إسترجاعه من: www.ehcconline.org/information_centre/wunview.php?artld=19747.، وهذا العنف يعتبر عنف متوسط مقارنة مع بعض الدول، وهذا المصرح به وما خفي كان أعظم.
- ومن بين ضحايا العنف الأسري، نجد كذلك المعوقين وكبار السن الذين يعانون من عنف معنوي، نتيجة عدم الاهتمام واللامبالاة بهم وتحقيرهم وتهميشهم من قبل أسرهم وطاقم المؤسسة القائمين على رغباتهم.
- ومن ضحايا العنف الأسري أيضا عنف الزوجة ضد الزوج، كظاهرة أصبحت ملفتة للانتباه وخطيرة داخل مجتمع تسوده القيم الدينية، خاصة وأن مفهوم العنف ظل ولفترات طويلة مرتبطة بالرجل وسيطرة الذكورة، كما أكد (دانييل ولزير لونج

daniel.wegzerlong ١٩٨٩). وما من أحد ظن أن هذه الخاصية ستتحول للنساء لتمارسها ضد الرجال في يوم من الأيام، فالظاهرة غير قابلة للإثبات رغم وجودها على الصحف اليومية، فالموضوع حساس ويمس كرامة الرجل ورجولته، فلا الزوج يستطيع أن يصرح بأنه ضحية عنف زوجته خوفا من العار والفضيحة، ولا الزوجة هي بدورها تستطيع أن تتباهى بتفوقها هذا لأنه يدخل ضمن الممنوعات **(دشاش نادية، ، ١٦١).**

هذا هو العنف الأسري الذي يهدد خلية العلاقات الإنسانية بين الزوج والزوجة، والأولياء والأبناء، أو الأبناء والأولياء، وحتى العلاقة بين الأبناء فيما بينهم، وبالتالي تتهدد العلاقات الاجتماعية وسط المجتمع، هذه العلاقات التي ضبطها الدين الإسلامي وحدد أبعادها لكي تبقى منسجمة ومتكاملة وسط الأسرة والمجتمع بعيدا عن العنف الأسري.

و بهذا تخلق فجوة في قيم التواصل والتراحم الإنساني، ووجود هوة بين الأفراد بعضهم البعض، وعدم فهم كل منهما للآخر، وعدم تقبل النصح والإرشاد من جانب جيل الصغار للكبار، واتهام الأجيال الصغرى بالسلبية والأنانية واللامبالاة وعدم المسؤولية، بعد انتشار تعليم الذكور والإناث وخروج الفتاة إلى ميدان العمل، واتصالها بالآخرين من مختلف الأنماط المجتمعية المحلية، الأمر الذي أدى إلى تقويض سلطة الكبار وغياب الدور الإرشادي والرقابي، نتيجة اعتماد الأبناء على أنفسهم في تدبير أمورهم **(يسرى دعبس، ٢٠٠٥، ١٣٦- ١٤٨)**، وغيرها من مظاهر العنف داخل الأسر الجزائرية التي تؤدي في النهاية إلى:

- انتهاك حقوق الإنسان، كالحق في الكرامة والحق في الحياة والحق في الحماية وفي سلامة الجسد، والمساواة داخل الأسرة وفي المجتمع، والحق في الصحة الجسدية وفي المعاملة العادلة.
- وجود العقد النفسية التي قد تنمو مع نمو الجسم، لتصبح سلوكيات عدائية وربما إجرامية.
- العنف يفكك أواصر الأسرة ويشرد الأبناء، مما يصعد موجة العنف في المجتمع.
- يفقد العنف الإنسان الثقة بالنفس وعدم الإحساس بالطمأنينة والأمان.
- وأبشع ما في العنف الأسري أثره السيئ على الأطفال، فيكثر عندهم اضطراب النوم والأحلام المفزعة والتصرف العدواني والألعاب العنيفة، وربما التبول اللاإرادي، وتقلب المزاج وتعنيف الحيوانات وتدمير الذات والفشل الدراسي والكذب، وقد يصل إلى حالة الاكتئاب.

ثانيا: الخطاب الديني:

شاع مصطلح الخطاب الديني في السنوات الأخيرة، نتيجة شيوع مصطلح الخطاب في الاستخدامات اللغوية المعاصرة بوجه عام. فالخطاب في اللغة من فعال مصدر من

خاطبة خطابا ومخاطبة، وهو يعني كلاما موجها إلى طرف واحد، أو الكلام المقصود به إفهام من هو متهيئ للفهم، تم استرجاعه من .www.binbyyah.net/pages/research/progects/alkhetabaleslami.dec.:

كما تعني كلمة خطاب في أصلها الأجنبي كلمة مقال، كما أدرك محمود الحضري ذلك عندما ترجم كتاب الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" (١٥٩٦-١٦٥٠) خطاب في المنهج بعنوان "مقال في المنهج".

وفي علم اللغة يحمل معاني ثلاث، أولها يشير إلى الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاما متتابعا يسهم به في نسق كلي متغاير متحد الخواص، لتشكل نصا منفردا، أو هي الطريقة التي بها يتألف ليشكل خطابا يحتوي على أكثر من نص مفرد، وبهذا يكون نوع الخطاب نص مكتوب، وعندما يدل على أنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي، فهو ببساطة كلام ملفوظ، وعندما يكون مساق من العلاقات المتبعة التي تستخدم لتحقيق أغراض معينة، فهو يشير إلى رؤية أو أيديولوجية ما **(أحمد زايد، ١٩٩٢، 20).**

فهو إذن عملية تفاعلية بين طرفين إحداهما منتج الخطاب والآخر العقل الذي تفاعل مع هذا الخطاب، وترتب على تفاعله رد الفعل سواء أكان سلبا أم إيجابا، ورد الفعل هذا يمثل تغذية استرجاعية لمفهوم ذلك الخطاب، فالخطاب هو نوع من الاتصال ما بين طرفين يسير في اتجاهين وبصورة دائمة مستمرة لا تنقطع، وإلا بانتهاء سريانها ينتهي مفهوم الخطاب **(كمال عبد اللطيف ونصر محمد عارف، ٢٠٠١، ١٠٩).**

وهو بهذا فعل اتصالي يسعى ضمن أبعاده ودلالاته الأيديولوجية ليبلغ رسالة ما**(أحمد حمدي،٢٠٠١، ٤)**، وموضوع معين إلى الجمهور بطريقة شفوية، كما هو الحال في الاتصال الحادث بين شخصين اثنين أو أكثر، أو بين شخص واحد ومجموعة، أو بين الإذاعة والمستمعين، أو بين المرسل التلفزيون والمستقبل المشاهد، أو يتخذ الصيغة التحريرية، كما هو الأمر في الكتاب والصحيفة، كما قد يعتمد بالدرجة الأساسية على الصورة أو الإيماءة أو الإشارة أو الحركة.

وبهذا فإن الخطاب يشير إلى لغة تصدر من المرسل إلى المستقبل، أو إيماءة أو حركة أو صوت يهدف من ورائها المرسل إخبار أو تبليغ المستقبل شيء ما أو بحدث ما أو خبر ما، وبذلك إقناعه بوجهة نظر معينة **(محمود شمال حسن، ٢٠٠٦، ٧).**

حيث عمل "فوكو" على تقسيم الخطاب إلى خطاب ثابت وهو خطاب يتردد في حياة الناس ولا ينقضي كالخطاب الوارد من الكتب المقدسة، وخطاب متغير هو خطاب الناس اليومي المعتاد الذي يفنى وينقضي بانقضاء زمنه، إذ لا تخرج هذه الأنواع عن سياق الوجود التاريخي كما يرى "فوكو"، لأن جميع المنطوقات statemnts التي تشكل وحدات الخطاب تتكون من علامات أو إشارات لها دلالات مختلفة، وهي تسرد وفق قواعد معينة، كما أن صياغتها على نحو معين يحمل في طياته فعلا معينا**(أحمد زايد، ١٩٩٢، ٢١).**

وبهذا يعتبر الكثير عن مستويات الخطاب، بأنها ترجع إلى موضوعاته ومصادره وفحواه ومحتواه، منه الخطاب التربوي والخطاب الفلسفي والخطاب السياسي والخطاب الديني إلى غير ذلك من أنواع الخطاب.

والخطاب الديني بالنظر لشموله، يحتوي كل هذه المناحي باعتبار عموم مفهوم الدين و كونيته الواسعة الفسيحة التي تجعل كل نشاط إنساني وجداني أو عقلي أو سلوكي بمختلف تغيراته الناقصة موزونا بميزان القيم ومصالح العباد من الدين، تم إسترجاعه من:

www.binbyyah.net/pages/research/progects/alkhetabaleslami.dec،

و حيث أن البحث يتعلق بالخطاب الديني، لابد من التمييز بين الخطاب الإلهي من نصوص الدين المقدسة، والبشري من النصوص التي تدور حول الدين.

وهذا المصطلح الأخير الذي يستخدم مع تقلب دلالته المعاصرة في هذا البحث، حيث يشير في كل الأحوال إلى الآراء والأفكار والاجتهادات والتفسيرات أو التأويلات التي يصوغها البشر حول دينهم، ونتيجة اتفاقهم أو اختلافاتهم في كيفية فهمهم نصوصه المقدسة، ومن ثم استنباطهم من الآراء أو الأحكام ما يستتب إلى عقولهم القابلة للإصابة أو الخطأ، كمال الشيء أو النقصان الذي يدفع إلى معاودة الاجتهاد والاستنباط.

فهو الجهد الفكري الإنساني للبشر الذين لا يفارق دائما خطابهم الديني أوضاعهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وذلك من حيث الكيفية التي يتأثر بها فهم النصوص الدينية بسبب العوامل والشروط التي تدفع بالفرد أو الجماعة الفكرية، أو التيار المذهبي إلى هذا التفسير دون غيره، أو ذلك التأويل دون سواه، تم استرجاعه من:

http://www.alsharq.com/DisplayArticle.aspx?xf=2009,March,article20090325 2&id=columnist&sid=profmoheeldinabdalhaleem.

ضمن فعاليات اتصالية إسلامية من وسائل وأساليب ومناهج ومواقف المنجدة، والتي تستخدم في العمليات التغيرية المخططة أو العفوية الرسمية أو الشعبية، الفردية أو الجماعية هادفة إلى نصرة الإسلام كمنهج وتاريخ وحضارة ومستقبل، والتمكن له على العالم الإسلامي والعالم الإنساني، ويظهر هذا الخطاب الديني على شكل مقروء كالكتاب والمجلة أو مسموع كالخطبة أو الدرس...**(الطيب برغوث ،١٩٩٦، ١١)**، فهو كل فهم للإسلام أو عمل من أجله، فالخطبة الدينية أو الدرس ألمسجدي والمجلة الإسلامية والرسم الكاريكاتوري والمعرض خطاب ديني إسلامي، إذ كان يحمل مضمونا دينيا ، فالخطاب الديني الشامل للزمان والمكان كشمول الشريعة التي يرتكز عليها **(عاشور بوقلقولة ،٢٠٠٧ ، ٦٠)**.

فهو نفس منهج الدعوة الإسلامية في مكوناته وأبعاده **(محمد منير حجاب،٢٠٠٦، ٢٥)** ، وخصائصه مع مراعاة أحوال الجمهور الواقعية للخطاب و صدقيته ومرونته وفعاليته ومشروعيته ودقته ، بهدف المحافظة على الدين وإبراز مقاييس الحلال

والحرام، الخير والشر، لسعادة الإنسان وإلزامه بأخلاق العمل الدعوي في ضوء معاني التقوى والمسؤولية أمام الله، وتنمية الشعور بالحرية وعدم العبودية لغير الله ورسوله، مع التركيز على وحدة الفكر والمجتمع، ونبذ القضايا الخلافية التي تشق صف الجماعة وتثير الفتن، وضرورة استخدام الحكمة عند الاختلاف ومراعاة المستوى الثقافي للناس واتجاهاتهم وعاداتهم وقيمهم، والتركيز على الأولويات والقضايا الأكثر أهمية فأقل أهمية، وأن ترتبط المعلومات المقدمة باحتياجات الناس وأن تتضمن الفوائد والمكاسب التي تعود عليهم، مع الحرص على تنويع الوسائل المستخدمة للتأثير في الجمهور، مع اقتناء الوقت المناسب والوقائع المختلفة التي يكون الجمهور متلهف لاستقبالها والاستجابة لها.

وتبرز هذه الأهداف أكثر ضمن مختلف القضايا والمجالات التي يطرحها الخطاب الديني، كمناقشة واقع المسلمين بصفة موضوعية، وتحليل مختلف التحديات التي تواجه هذا الواقع، وعرض أسباب فشله وصلاحه ضمن نظرة الدين إلى الإنسان والحياة، وأنظمة الحكم وقضايا الاقتصاد والقضاء والتكامل السياسي والاجتماعي، وطريقة بناء الأسرة والآداب المتصلة بها، وإبراز القيم الدينية بالحرية والمساواة والأخلاق، وتحديد أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الشعوب، ومناقشة رؤى الإسلام بقضايا المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وكذا الحضارية ودوره في التنمية الشاملة في المجتمعات، مع استقراء وتحليل وشرح الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية، وتقديم القصص والنماذج الإسلامية في الحياة الإسلامية، بغية الفهم والمساهمة للحاق في مسيرة الحضارة الإنسانية (**محمد منير حجاب، ٢٠٠٦**، ٢٩٥-٢٩٧).

ثالثا: دور الخطاب الديني في التقليل من ظاهرة العنف الأسري:

لم تعد الأسرة الجزائرية في أغلب مظاهرها، كما كنا نعرفها ونألفها أو نتخيلها ونريدها، وإنما هي في تغيير متسارع على ضوء ما حدث من التحولات السياسية والاقتصادية والمجتمعية، فضلا عن الانفجار التقني والحضاري الذي تمثل في ثورات المعلومات والاتصالات، هذه المتغيرات تشكل تحديات كبيرة أمام الأسر المعاصر، بقدر ما تجعلها تنخرط في واقع كوني جديد يتغير معه نظام الأسرة وخريطة علاقتها الاجتماعية، لتتبدد مبادئ القيم وعلاقات الفرد بمختلف مفردات وجوده بالزمن والمكان داخل الأسرة.

وتطفو على سطحها مظاهر الاعتداءات من ضرب وتعذيب وحرق وقتل، وشتم وارتكاب الفواحش بين ذوي القربى، وإجبار بعضهم البعض على التسول والسرقة وممارسة الرذيلة، مع انفجار مسلسل التخطيط، لتدمير حياة العجزة وكبار السن، والتفريق بين الإناث والذكور في جميع احتياجاتهم، وسادت مشاعر المادية والأنانية وحب الذات، وعدم التواصل والتراحم بين أفراد الأسرة... وغيرها من أشكال العنف

الأسري التي تحدث تناقضات صارخة في العلاقات الاجتماعية الأسرية، وتضرب البناء الاجتماعي في العمق.

الأمر الذي يتطلب قراءة حية لواقع الأسر المتغيرة، والوقوف على مختلف المعطيات والتحولات التي هزت القيم الراسخة والأنظمة السائدة، التي كونت الأسرة الجزائرية، لأن ما يحدث على مسرح هذه الأسر في هذا العصر يحمل من يفكر ويتأمل، على المراجعة وإعادة النظر بصورة جذرية، ويضعه موضع المساءلة حول تفسير هذه المشاهد من العنف الأسري، مادامت مبادئنا مثلى وقيمنا سامية وسط بيانات ومؤثرات تنعقد حول حقوق الإنسان والمحافظة عليها، وكيف تحصل مثل هذه السلوكيات العدوانية داخل الأسرة الخلية الأساسية لبناء المجتمع، مادمنا نقيم وسط هذا الحشد من المرشدين العقائديين، ومادام يعيش بيننا أناس هم دعاة الدين ونخبه والناطقون باسمه؟!

باعتبار أن الدين هو المكون الأساسي لشخصية المسلم الدينية، التي تتميز بعمق التكوين وامتداده، فالدين الإسلامي يخاطب المسلم برؤية تتناول الجوانب الأساسية للحياة وعالم الغيب والآداب والعبادات، ولا يعرف فقط باعتبار المفاهيم والمبادئ العقائدية، بل أيضا بالسلوك الفردي والاجتماعي لأنه البناء والنظام والعلاقات الاجتماعية، وهو الحالة الفكرية التي تعطي الطريقة والمضمون لنظام الأسرة والمجتمع في جميع مرافقه، فهو العقيدة وهو المبادئ وهو الروح الاجتماعية التي بفضلها ينهض المسلمون حملة الرسالة في بناء دولة وحضارة.

وكانت الأفكار والمبادئ التي جاء بها القرآن تخلق التطورات الاجتماعية، وتحدث التغيرات النوعية الجديدة في المجتمع في مستوى الفكر والواقع، على ضوء مفاهيم وقوانين موضوعية واعية تلامس مظاهر الطبيعة وتشكيلات الكون والوجود، وتعالج مشاكل الإنسان وما يتعلق بها من نتائج وأحداث تنعكس على مجمل الحياة الاجتماعية والبناء الحضاري للإنسان **(حسن سلمان، ٢٠٠٢، ١١-٢٢).**

فلماذا إذن هذا البعد الشاسع بين سمو تعاليم الدين، وسوء أحوال المسلمين وكثرة مشاكلهم وتنوع سلوكياتهم العدوانية داخل أسرهم؟. وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي إذن مراجعة الخطاب الديني السائد وسط المجتمع عبر المنابر الدينية، سواء فتوى أو تصريحا أو محاضرة أو درسا دينيا أو خطبة جمعة، كآداة اتصالية جماهيرية بلغة اليوم، وليس شرطا حصرها في السياق الفقهي، وإنما يمكن تناولها في سياق الاتصال والإعلام أيضا.

إذ يقول احد الإعلاميين أن المسلمين يمتلكون أهم وسائل الإعلام والاتصال المؤثرة أكثر من غيرها، وهي خطبة الجمعة التي طالب بها أحد علماء الدين، وحث الحكومة على السيطرة على الإذاعة والتلفزيون ووسائل الإعلام، وترك لهم خطبة الجمعة لما لها من أهمية ودور كبير في إيصال الرسالة للمستمعين (المصلين)، باعتبارها إلزامية وركن من أركان صلاة الجمعة التي لا تصح إلا بها، وبالتالي يصل تأثيرها غالبا إلى كل

بيت ولتنوع جمهورها. حيث يحضرها الكبير والصغير، المثقف والجاهل، العامل والبطال، الرجل والمرأة، وغير ذلك، لذا يكون تأثيرها واسع ولابد من أن تكون متوازنة وتراعي مختلف المستويات، لأنها ليست درسا نظريا بقدر ما هي حقيقة تشرح وتعرض، فهل أدرك الخطاب الديني هذه الحقيقة ؟، تم إسترجاعه من: http://www.bassia.org/meetings/2004/Aziz-kayed-2004.htm.

الواقع الميداني الذي تمت دراسته حول الخطاب الديني لمساجد مدينة القنطرة ولاية بسكرة، من خلال إجراء مقابلة مع أئمة هذه المساجد وبعض المصلين، إلى جانب تحليل بعض الخطب للبحث في دور الخطاب الديني كأحد أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية وهي المساجد، في الحد من ظاهرة العنف الأسري، لما لهذا الخطاب من قوة في تشكيل المحتوى الداخلي للإنسان الذي يتجسد من ناحية جانبا فكريا، وهو الجانب الذي يحتوي على تصورات معينة نحو الغاية والهدف، ومن ناحية أخرى يمثل الطاقة أو الإرادة التي تحفز الإنسان نحو هذا الهدف وتنشطه للتحرك باتجاهه،(**حسن سلمان، ٢٠٠٢، ١١-٢٢).**

وعندما يتم المزج بين الفكر أو الإرادة تتحقق فاعلية المستقبل، ويتحرك الفعل الإنساني نحو سلوكيات غير عدائية تؤدي إلى تكوين علاقات أسرية طيبة، تمكن كل فرد من أداء وظيفته ودوره على أكمل وجه، بفضل الهدف والغاية التي شكلتها القيم الدينية من خلال الخطاب الديني، وهذا لتحقيق تكامل وانسجام وتوافق الأسرة كنظام اجتماعي بفضل تكامل المستوى الداخلي والخارجي لوحدات الأسرة.

وإذ ما حدث هناك خلل في هذا البناء كصور العنف التي تعاني منها الأسرة المعاصرة، لابد أن نرجع هذا الخلل إلى الخطاب الديني باعتباره قوة تشكل أفعال وسلوكيات الإنسان داخل الأسرة، وتحدد علاقاتها لتظهر بمظهر البناء المتكامل أو البناء الذي يعاني من مظاهر ومشاكل العنف الأسري.

حيث بينت الدراسة الميدانية أن ما حسبناه هو الحل الذي يمكن أن يشكل حقيقة سلوك الإنسان ويرشده إلى الاستقامة، ويحدث توافق بين أفراد أسرته وفق عملية التغيير والبناء لصناعة الإنسان،على ضوء الخطاب الديني، أضحى هو المشكلة لانفكاكه عن دوره ووظيفته الحقيقية الواقعية، وبقيت بصورة بلاغية وقصص أسطورية ورموز غنية مشفرة، ارتبطت بعامل الزمان والمكان الذي نشأت فيه، وإن تحركت وسط مكانها كان بفضل نسبية المعطيات المعرفية والثقافية للخطيب الذي يتكلم معطيات الماضي البعيد واجتهادات السلف الصالح، التي لا تخرج عن سرد الأحاديث النبوية والآيات الكريمة للاستدلال بها وفهمها، لكي تقوى سلطان النص على القلوب وإن تم تطبيقها على أرض الواقع، فهي لا تخرج عن دعوة الناس للتأسي بصاحبها عليه الصلاة والسلام، كما أجاب أحد الخطباء، وبينته محتويات الخطب التي حصلنا عليها ضمن موضوع العنف الأسري، التي تطرقت لبعض ظواهر الأسر وأهملت معظمها.

إذ ركزت على طرح العلاقة التي من المفروض أن تكون بين الزوجة وزوجها، بين الأبناء وأوليائهم مهملة بذلك باقي العلاقات التي تشكل كيان الأسرة، والتي قد تحدث مظاهر العنف كعدم التطرق لعنف الزوجة ضد زوجها، عنف الآباء ضد أولادهم، كظواهر فرضت نفسها في هذا العصر.

لينفصل بهذا الخطاب الديني عن واقع الحياة واهتمامات الناس ومعاناتهم، والتركيز على أمور الآخرة وإغفال اعمار الدنيا، بتجاهل عناصر أثر الزمان والمكان والأحوال في الفتوى، ليفقد القدرة على التناسق بين البنية الاجتماعية التي تعيشها الأسرة المعاصرة، وبين البنية الثقافية التي يتشكل الخطاب الديني أحد أبرز مقومات نظام الأسرة.

لأنه عندما لا تعود قيم المجتمع تتناسب مع إمكانيات نشاطه كما يقول عالم الاجتماع الأمريكي "ميرتون"، ينشأ الاختلال وتدب الفوضى في تركيب بناء الأسرة، وتتجلى بذلك مظاهر العنف والانحراف كمبدأ أساسي للخلل الوظيفي واللانظامية في الأسرة والمجتمع (**حسن سلمان، ٢٠٠٢،١٢٦.**).

وهذه نتيجة طبيعية لركود الخطاب الديني ووقوفه على ظاهرة النصوص وحروفها مع الغفلة عن مقاصد الشريعة وكيفية تطبيقها في الواقع، بإهمال العلم في بناء التصور الإسلامي والعقل، في استنباط الأحكام الفعلية ليتحول الخطاب الديني إلى أبنية معيقة وممارسات تقليدية.

لأن معظم مواضيع الخطب تكون مسطرة كعناوين كبرى من قبل توجيهات الوزارة أو المديرية، ووفق المناسبات السنوية، كالحج، عيد المرأة، عيد الأم، الإسراء والمعراج... غير أن المحتوى يتحكم فيه الإمام، إذ بينت المقابلة أن معظم عناوين المواضيع التي تتكلم عن الأسرة لا تخرج عن مواضيع السلف الصالح، كالزواج والأسرة في الإسلام وتربية الأبناء، حق الزوج والزوجة، بر الوالدين، معوقات الزواج، تربية النشء في الإسلام، كيفية تعامل النبي مع أزواجه، شرح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "استوصوا بالنساء خيرا" وغيرها من العناوين التي تم تحليل محتواها، وجدناها عبارة عن مواضيع نظرية لا تلمس الواقع المعاش في أغلبها، لأن معظم هذه المواضيع يستقيها الخطيب جاهزة من مواقع الانترنت، والبعض الآخر يكتب رؤوس أقلام في ورقة يذكر فيها محاور الخطبة، ويكتفي بما يجيد به ذهنه، فيحدث في بعض الأحيان خلل في توازن الأفكار حسب رأي بعض المصلين، حيث يشبع الخطيب فكرة ويطيل فيها على حساب باقي الأفكار التي إذا تطرق لها يذكرها بلا استشهاد ولا إقناع رغم أهميتها، وإن شعر بملل المصلين من خطبته لا مانع أن يقلص هذه الأفكار كما أقر أحد الخطباء.

عكس البقية التي تحاول الاجتهاد والاعتماد على مجموعة من الكتب والمراجع لتكون خطبهم مميزة ومفيدة نوعا ما، كما أقر بذلك بعض المصلين، لكنها لا تتعدى وقر

القلب الذي لا يصدقه العمل، لأن أغلب تلك الخطب هي سرد حقائق الماضي والمستقبل بعيدا نوعا ما عن الحاضر، وإن تطرقوا له فهو لا يخرج عن المناسبات والأعياد.

أما الواقع الاجتماعي والمعاناة اليومية للأسرة الجزائرية من مظاهر العدوان والعنف الأسري، يذكر كجرة قلم دون تحليل وتفسير الأسباب والعوامل الحقيقية التي أظهرت هذه السلوكيات داخل الأسرة الجزائرية، التي لم يعد يكفيها الوعظ والإرشاد الذي أصبح كمسكن يذهب مفعوله بمجرد الخروج من المسجد، لاعتقاد بعض الخطباء أن الرادع القانوني صار أقوى من الوازع الديني. كلام خطير يطرح سؤال على قائله: أين دوره؟

هذا الدور الذي يصطدم بواقع مفارقة بين مثالية ما يطرحه الخطيب في كلامه المفترض، وبين واقع تعيشه الأسرة ضمن ظروف اجتماعية واقتصادية محددة في المجتمع.

إذ أصبح ذلك الخطاب في نظر المصلين مجرد تنظير يحمل الآيات والأحاديث، ويخرجنا في رحلة مع الماضي البعيد كيف كان السلف الصالح، دون أن يلخصوا في أغلب الأحيان واجب كل مسلم اتجاه الموضوع الذي ألقي سواء على وجه الإجمال أو بشيء من التفصيل والبيان، إلا فيما يخص العودة إلى طاعة الله والعمل للآخرة بالوعد والوعيد الذي أعده له للغافلين، كما أكد ذلك أحد الخطباء عندما سألناه حول نوع التغير الملموس عند الناس بعد سماع خطبهم حول مواضيع الأسرة ومشاكلها.

عاجزين بذلك ضمن خطابهم الديني على التأسيس لواقع متطور متقدم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في انطلاقته بالرسالة السماوية من العشيرة الأقربين إلى الوسط الاجتماعي الواسع.

وهذا ليس بجديد بالنسبة لقصور الخطاب الديني وعجزه عن ترجمة الجانب النظري إلى واقع حضاري، إذ ترنح أمام تحديات اجتماعية وسياسية كبرى توالت عليه منذ أواسط الخلافة الراشدة، عندما اختلطت الثقافات الفارسية والرومانية بعد الفتوحات الإسلامية، ودخلت على المجتمع العربي أنماط حياة وفكر لم تكن معهودة في عصر النبوة المؤيد بالوحي مباشرة...

ومنذ ذلك الحين والهوة بين النظرية والممارسة في الخطاب الديني تزداد حتى بلغت أوجها في نهاية العصر العباسي، عندما انقسم قادة المجتمع إلى عدة فئات أولها فئة المترفين الباذخين من الأمراء وأعوانهم، تليها فئة المنعزلين المنغلقين على أنفسهم، المتمسكين بالنص بعيدا عن صخب الحياة، ثم فئة الصوفيين الذين وجدوا في الروحانيات والخيال والخرافة والرهبانية، ما يروي وهمهم شيء من الحق، وفئة الخوارج التي عبأت الإنسان نحو الحركة الثورية العارمة.

وقد يكون الخلل أقل من ذلك كتغليب ظاهر النص على معناه ومقاصده، كما تحث الظاهرية، وقد يبالغ في تغليب المعاني حتى تتناقض مع صحيح النصوص، كما يرى التفسير التأويلي للدين، الذي ذهب إليه طوائف من السلوكيين والفلاسفة، من: httpM//www.stamonline.net/arabic/contemporarg/2004/3/artede02 .(a.shlml.

لتتفجر أزمة الخطاب الديني مؤخرا وتفرض نفسها على منابر الفكر وقنوات الاتصال، بعد الانهيار الاقتصادي والتدهور الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة، وعجز ربط الدين بالواقع كأهم عقبة تواجه الخطاب الديني، كما يقول أحد الخطباء بغياب المؤهلات المادية والعلمية للخطيب، إلى جانب ما فرضه خطاب العولمة على الناس. لما له من تأثير على تسطيح الوعي وتغيير المبادئ والقيم، وتشكيلها من جديد على ضوء ما تريده وتسعى إليه العولمة بفضل شبكات الاتصال والإعلام.

وهكذا يكاد يفقد أو بالفعل فقد الخطاب الديني مصداقيته، واختلت وظيفته وانهار دوره، لكي ينضم مع باقي الخطابات والأيديولوجيات العربية، من حيث العجز والإفلاس لمواجهة تحديات ومتغيرات الأسرة المعاصرة. بل ليشكل أحد عوامل وأسباب انتشار العنف الأسري وسط المجتمع.

وفي الختام ولكي يعود للخطاب دوره في التقليل من ظاهرة العنف الأسري، لابد من تجديد الخطاب الديني ليواكب التطورات والأحداث، ويتماشى مع العصر ومشاكل ومعاناة الأسر المعاصرة، ومراعاة الصحة النفسية للأفراد والجماعات داخل أسرهم، وإحياء الأمل في نفسهم وحمايتهم من العنف والإحباط واليأس، ليتمكن الإنسان من القيام بدوره وسط أسرته، وبالتالي مجتمعه من منطلق أن الشريعة الإسلامية لم تترك أي قضية إلا وتناولتها.

بداية بالبحث عن الثقافة الاجتماعية وعن نوع الروابط بين الجماعات الأسرية، وبين الروح الفردية الإنسانية، وما يحركها نحو الخير والشر، والبحث في العوامل الجامعة لوجود الأسرة وعلاقاتها المختلفة، بالاجتهاد والعمل على استنطاق القرآن مع حركة الزمن والإنسان والأسرة في كافة المشاكل خاصة العنف الأسري، وكشف حلوله وآرائه في مجالاتها المختلفة بقراءة الفيلسوف والاقتصادي والاجتماعي، وثقافة المربي للروح والنفس من أجل الحد من ظاهرة العنف الأسري .

المراجع:

أحمد حمدي: جذور الخطاب الأيديولوجي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠١.

أحمد زايد: خطاب الحياة اليومية في المجتمع المصري، ط١، القراءة للجمع النشر والتوزيع، دبي الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٢.

حسن سلمان: دراسات قرآنية حول الإنسان والمجتمع، ط١، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ٢٠٠٢.

دشاش نادية: العنف الزوجي، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة ٢٠ أوت ٥٥ سكيكدة، (عدد٠١ سبتمبر)، (٢)-

الطيب برغوث: الخطاب الإسلامي المعاصر وموقف المسلمين منه، ط١، دار الامتياز، الجزائر،١٩٩٦.

عاشور بوقلقولة: الخطاب الديني وأبعاده المقاصدية، مجلة رسالة المسجد،تصدر عن وزارة الشؤون الدينية للأوقاف ،الجزائر، (العدد٢٠٠٧،٠١).

عبد الله بن الشيخ المحفوظ: الخطاب الاسلامي بين القواطع والاجتهاد، ورقة مقدمة لمؤتمر العالم الاسلامي، الخطاب الإسلامي وإشكالية العصر، مكة المكرمة، ٥-١٤٢٨/١٢/٧ هـ،

www.binbyyah.net/pages/research/progects/alkhetabaleslami.dec.

كمال عبد اللطيف ونصر محمد عارف: إشكاليات الخطاب الغربي المعاصر، سلسلة حوارات القرن الجديد، دار الفكر، دمشق سوريا، ط١، ٢٠٠١.

محمد منير حجاب: : تجديد الخطاب الديني في ظل الواقع المعاصر، دار الفجر، القاهرة،ط١، ٢٠٠٦

محمود سعيد الخولي: العنف في مواقف الحياة اليومية، دار الإسراء للطباعة والنشر، ٢٠٠٦.

محمود شمال حسن: خطاب الأزمة ومحنة الآخر، سلسلة دراسات في علم النفس الاجتماعي، ج١، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠

يسرى دعبس: المحميات الاجتماعية والتنية المتواصلة- رؤية وخبرات ميدانية في الانثربولوجيا الايكولوجية- سلسلة التنمية والبيئة، ج١٣، ط١، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ٢٠٠٥، ص١٣٦- ١٤٨.

http://www.bassia.org/meetings/2004/Aziz-kayed-2004.htm.

http://www.alsharq.com/DisplayArticle.aspx?xf=2009,March,article

200903252&id=columnist&sid=profmoheeldinabdalhaleem. ٢٠١٦/٠٢/٢٣،
httpM//www.stamonline.net/arabic/contemporarg/2004/3/artede02a.shlml.
www.annabaa.org/nbamews/70/113.htm٢٠١٦/٠٤/١١،
www.ehcconline.org/information_centre/wunview.php?artld=19747.٢٠١٧/٠٢/١٢ ،
www.saaid.mzt/book/9/2799.doc.٢٠١٦/١١/١٧ ،
www.saaid.mzt/book/9/2799.doc. ٢٠١٦/١٢/١٣،